

فقه الإصلاح والتدين من خلال المدرسة المغربية في القرن 11هـ

"الحسن اليوسي نموذجاً"

عبد العزیز تکی¹

toughniabdelaziz@yahoo.com

تقديم الحمد لله ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾² واعتمده محور التغيير، ومحله وأناط عملية الإصلاح والتغيير والتجديد بإرادته واختياره، والشهادة على الناس والقيادة لهم إلى الخير بما يمتلك من مدرجات جماعية، ومن خلال إيمانه بالوحي الخالد الذي تعهد الله بحفظه، والذي يشكل أساس النهوض ويمنح الإمكان للشهود الحضاري، فيستطيع من خلاله، تقويم الماضي وتغيير الحاضر وحسن بناء المستقبل، وهذا لا يتنافى مع قدر الله وإرادته، وإنما هو من قدر الله تعالى وإرادته، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الرسول القدوة خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد: فإنَّ فقه الإصلاح والتدين يعد من الحقول الفكرية التجديدية التي برز فيها علماؤنا الأعلام وتفتق فيه نظرهم الفذ.. وقد عرف عن علماء المدرسة المغربية الفحول شدة اعتنائهم بهذا الحقل، فكان لهم حظ وافر ونصيب بارز في تعميق النظر فيها تجديدا وإحياء، وقراءة ونقدا، وصيانة وحفظا، وهذا مما برز فيه فقيه المغرب الكبير الإمام أبي علي اليوسي رحمه الله على أقرانه. فمن خلال تأليفه ورسائله ونوازله واجتهاداته وأفكاره الإصلاحية، ندرك "الميزة الكبرى للإمام اليوسي في ترك التعصب المجانف للعلم والعلماء لرأي بعينه أو لإمام مهما بلغت إمامته"³.

إن الحديث عن فقه التدين عند أبي علي اليوسي من خلال مشروعه الفكري الإصلاحي التجديدي، ليس بالسهل اليسير، وذلك لعلو كعبه وعبقريته ومشاركته في شتى العلوم، ومكانته وتميزه بين أقرانه، فهو "عالم المغرب ونادته وصاعقته في سعة الملكة وفصاحة القلم واللسان مع الزعامة والإقدام والصدع بما يترأى له وكثرة التصنيف على طريق بعد العهد بمثله، وهو الكلام المرسل الخالي عن النقل إلا ما لا بد منه"⁴. فكان رحمه الله قائمة علمية نفيسة وأيقونة فقهية مالكية متفردة، وشخصية منظرية مؤصلة محققة، أعجوبة الدهر ونادرة العصر المعروف باجتهاداته، وتجديده للمدرجات الجماعية للأمة المغربية، كنسق قيمي ورؤية معرفية فاعلة، على مستوى التمثيل المعنوي والتمثيل الواقعي، منهجا وسلوكا ومن معاصريه من رأى فيه "المجدد على رأس هذه المائة، لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار إمام وقته وعابد زمانه"⁵، ولذلك قال الإمام أبو سالم العياشي: من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه.

وقد استجاب الله دعوة شخيه محمد بن ناصر الدرعي رحمه الله فيه لما دعا قائلا "اللهم اجعله عينا يستقي منها أهل المشرق وأهل المغرب"⁶؛ فكان بحق حلقة وصل وواسطة عقد عظيمة بين سلفه وخلفه، كما أنه أعطي فكرا تركيبيا، وقريحة وذكاء، جعله ينفذ إلى عمق ما يدرس من المسائل المطروحة، ويجعلها مطية لذلك وفطنته وعمله ويستوعب استيعاب الفاحص الناقد المتمكن. ببعد أخلاقي عرفاني مقاصدي يقول عن نفسه رحمه الله في فهرسته "وكانت قراءتي كلها فتحا ربانيا، ورزقت والله الحمد قريحة وقادة، وفطنة ذكية"⁷.

لقد عاصر أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (1040هـ-1102هـ) فترة عصيبة وحاسمة من تاريخ المغرب، ولحظات رهبة وأحداث اجتماعية خطيرة وانحرافات سلوكية على مستوى المدرجات الجماعية للأمة، حيث الفوضى والفتنة والاضطهاد والخراب والضعف.. والتطاحن والتصارع على الرئاسة من قبل القوى المختلفة المتواجبة في الميدان، "ويمكن أن نحصر حياة الإمام اليوسي بصفة عامة في ثلاث فترات: الصبا والتكوين والتنقل لطلب العلم حتى أعوام الستين؛ الاستقرار بالزاوية الدلائية من أعوام الستين حتى تخريبها سنة 1079هـ؛ ما بعد الزاوية الدلائية من 1079هـ إلى 1102هـ سنة وفاته"⁸. ولعلها أهم فترة لفهم المدرجات الجماعية التي حملها المشروع الفكري للرجل، وبلورت شخصيته في بعدها الأخلاقي الإنساني المشترك، تمثلا معنويا وتزيلا واقعيا، لأنها عرفت شدة الاضطراب من حياته.

كل هذا وغيره جعله محل أنظار وثقة، فلا تكاد تخلو تأليفه في الفقه المالكي، من ذكر نوازل وفتاواه وأجوبته السديدة، وشروحاته واختياراته الاجتهادية الفريدة، البعيدة كل البعد عن منهج التقليد والجمود، فظهر نجمه وعلا قدره في علم

الشريعة والحقيقة تأصيلاً وتصحيحاً، واجتهاداً وتجديداً؛ وفي علم التوحيد والكلام تحريراً وتحقيقاً وتنظيراً وشرحاً وتأليفاً وترجيحاً؛ وفي إصلاح الشؤون العامة، وأحوال المجتمع وتدينه توجيهاً وإرشاداً ونصحاً، داعياً إلى الجمع بين المنقول والمعقول، وبين التفقه والتكلم والتصوف علماً عاملاً وفق منهج أخلاقي وأصول أهل السنة المعتمدة، مُشَفِّعاً ذلك بالأدلة والأمثلة في نسق بديع لا يختلف مع الواقع الذي عاشه، من غير تكلف ولا تكلس ولا تحجير، حتى نعتة البعض "غزالي عصره". يقول في رسالة له إلى أهل بلد كارت: "عليكم بالتعلم والسؤال عما لا تعلمون، ولا تكتفوا بعقولكم وقلدوا الفقهاء في الأحكام الشرعية من الديانات والحلال والحرام، والمتكلمين من أهل السنة في العقائد الدينية، ولا تقلدوا في الآداب وصلاح القلب إلا أرباب القلوب"⁹.

وعلى الرغم من المعاناة القاسية والعداء والاضطهاد فقد استطاع الفقيه اليوسي خلال مدة أن يفرض نفسه ويبرهن باللموس على تضلعه في العلوم النقليّة والعقلية، فأسس منهجاً اجتهادياً تجديدياً أخلاقياً رصيناً ومدرسة فكرية فريدة أصيلة توسع فيها وبرز وتصرف واجتهد، وأصبح أستاذاً فيها حتى قال فيه صاحب نشر المثاني "... وكان صاحب الترجمة آية في المعقول والمنقول، واليه المرجع فيهما، وآية في النبل والإدراك."¹⁰ وقد تخرج منها جيل من العلماء الكبار أخلصوا له الحب والتقدير جاءوا من بعده أمثال: العلامة الحسن بن رجال المعداني ومحمد بن زاكور ومحمد بن عبد السلام البناني؛ وغيرهم من الذين نقلوا أقواله واعتمدوا آراءه وصولاً إلى زماننا هذا.

ومن جملة المؤلفات التي ألفها رحمه الله والتي لا تخلو من فوائد جمة وآراء اجتهادية، تعتبر من صميم البحث قد حقق بعضها الباحثون، ومنها ما يحتاج إلى تحقيق، وهذه بعض منها نذكرها هنا استئناساً وليس من باب الحصر. ففي التفسير له: فتح الملك الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب. وفي التوحيد له: حاشية على شرح كبرى السنوسي وشرحه للصغرى؛ رسائل في التوحيد. وفي الفقه، لازالت جل مؤلفاته الفقهية مخطوطة في الخزانات العامة والخاصة وقد وقفت على أغلبها في انتظار تحقيقها مستقبلاً من لدن الباحثين ومن أبرزها: رسائل وفتاوى؛ نوازل سيدي الحسن اليوسي؛ شرح على شرح خليل؛ منظومة فقهية على نسق متن ابن عاشر؛ أجوبة فقهية متفرقة؛ بحث فيما يجب على المكلف من أصول الدين وفروعه. أما في أصول الفقه فله: الكوكب الساطع بشرح جمع الجوامع لتاج الدين السبكي. كما ألف في الآداب واللغة وقواعدها، وله فيها: المحاضرات؛ زهر الاكم في الأمثال والحكم. وله أيضاً ديوان شعر. وله في التصوف: شرح عقد جواهر المعاني في مناقب الغوث عبد القادر الجيلاني. وفي المنطق ألف: نفائس الدرر على شرح المختصر للسنوسي. أما رسائل اليوسي، فقد تضمنت أربعة موضوعات كبرى: الشؤون العامة وأحوال المجتمع؛ التصوف؛ التوحيد؛ الفقه. وتروم هذه الورقة البحثية أن تسهم بمشئته تعالى في إلقاء الضوء على مساهمات الإمام اليوسي في تجديد وإصلاح المدركات الجماعية للمجتمع المغربي؟ وما هي أبرز معالم فقه التدين في المشروع الفكري الإصلاحية اليوسي؟ وإلى أي حد كان موفقاً في الجمع بين التمثل المعنوي للقيم الفكرية والتنزيل الواقعي للقيم السلوكية؟

1/ معالم فقه التدين من خلال المشروع الفكري اليوسي

1.1/ معالم فقه التدين من خلال الدرس العقدي اليوسي: الحديث عن شخصية الإمام أبو علي اليوسي (ت1102هـ/1691م) وسنيتة التي تنم عنها القضايا العقدية التي تناولها في كتبه ورسائله التوحيدية، وأقواله وتوجيهاته، ومنهجه في محاربة الانحرافات الدينية، التي عجز بها القرن الحادي عشر الهجري، هو حديث عن منهج أصولي مقاصدي عرفاني ذي بعد أخلاقي مضبوط يرتقي إلى مستوى الاجتهاد والانتقاد والرد والقبول، وإتباع السنة باعتبارها السبيل الأقوم، وباعتبار صاحبها عليه السلام وخلفائه من بعده خير من يقتدى بهم.. فالإمام اليوسي لا ينفك يسأل المولى تعالى "أن يجمعنا على السنة والاستقامة.. وإتباع سنته قولاً وفعلاً واعتقاداً، وذلك هو سبب الفلاح والنجاة لا غير"¹¹.

ولما كان التقليد الأعلى للمذهب والجمود عليه، وعدم استعمال الرأي، والانحرافات الدينية والبدع والزيغ والأهواء والضلالات، هي خاصيات عرف بها عصر اليوسي ومعاصروه فإن مدركاته الفكرية أبت إلا نبذ ذلك. وهو ما تبينه رسائل

الإمام ومؤلفاته المتعلقة بمسائل العقيدة والتوحيد، ومنها: حدوث العالم وقدمه؛ جواز الكفر على الأنبياء؛ الحديث في القرآن والنبوة. وقد ناقش فيها الفرق الكلامية من أهل السنة، والدهريين والفلاسفة، وعالجها من وجهة نظر أهل السنة بنفس مقاصدي، وأضفى عليها من سعة أفقه وعمق تفكيره، وتبحره في علم المنطق الثني الكثير، متحرراً من قيود التقليد التي كانت فاشية في عصره. وحرص على تحصيل الإيمان والمعرفة عن طريق التحليل والتعليل عاملاً على الجد في ذلك. ففي مسألة حدوث العالم أو قدمه وما تستلزمه من إبطال التسلسل أو اثباته، تعرض لأقوال مختلف الفرق - معتقداً في جداله بطبيعة الحال برأي أهل السنة - لكنه في ذلك يصحح ويعدل ويقبل ويرفض، ويقارن ويناقش أدلتهم وحججهم بمنهجية علمية رائعة¹². ومن جملة توجيهاته وتنبيهاته الأصولية الكثيرة تنبيهه على الشجرة الخضراء التي اشتهرت بسجل ماسية وكثر تعلق الناس بها إلى حد أمر بعض الفقهاء بقطعها. يقول: "فليعلم الناظر أنها إنما هي شجرة لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، ومثلها أحق أن يقطع"¹³.

وفي رسالة له حول مسألة ذات الله تعالى هل هي حسية أو معنوية، بسط القول فيها وحرره تحريراً في قياس بديع بين اعتقاد النصراني في ذات الله تعالى وصفاته حيث قالوا بأن الله تعالى صفة قديمة، وأنه مركب من أقانيم ثلاثة هي: العلم والحياة والوجود، فاتحدت فصارت إله واحداً فجمعوا بين الوحدة والكثرة، فقال بشأن ذلك:

فكل من ذهب إلى أن ذات الله تعالى معنى من المعاني، فمذهبه كمذهب النصراني [...] وأما من قال إنها حسية فيقال له: إن ذات الله موجودة وهو قائم بنفسه ويترك لفظ الحسية وإن صح معناها، كما يترك لفظ المعنوية لعدم صحتها هي معنى.

والعلم عند الإمام اليوسي رحمه الله مقرون بالعمل - في مزج بديع بين القيم الفكرية والقيم السلوكية - يبدأ عنده من عبادة الله "وهي مجموعة من علم وعمل، والعلم علمان: علم بالمعبود، وعلم بما به يعبد. فهذه ثلاثة أقسام الأول وهو العلم بالمعبود فهو التوحيد، وهو معرفة الله تعالى، فإن الله تعالى هو المعبود، ولا معبود بالحق سواه تعالى... وأما القسم الثاني وهو العلم بما يعبد الله تعالى به، فهو معرفة أحكام الفقه... وأما القسم الثالث هو العمل، فهو الامتثال بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، والدوام على ذلك حتى يأتيه اليقين"¹⁴.

فهو رحمه الله يرى أنه لا علم بدون عمل، والعمل يتبلور في تصويره من خلال سلوك معين وآداب مضبوطة تشكل عنده حدود التزام يدعو إليه، وهو ما عبر عنه بالإخلاص؛ فالناس عنده¹⁵:

كلهم هلك إلا العالمون، والعالمون كلهم هلك إلا المخلصون، والمخلصون قليل، أي فهم قليل من قليل. "وقد بين ملامح هذا الإخلاص في كتابه *القانون* حيث ذكر منها "تقوى الله تعالى ودوام خوفه ومراقبته في جميع حركاته وفي سره وعلائحته، وليستشعر ما أودعه الله تعالى من أمانة فيجتهد في حفظها ويحذر من الخيانة فيها..." ويستتبع ذلك الورع والوقار والخشوع والخضوع والسكينة وحسن السمات [...] ومنها أن يصونه كما صانه أهله ويحفظ عليه ديباجته وشرفه، فلا يمتنه بذهابه إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة، [و] أن يتزهد عن دني الأفعال والأحوال طبعاً وشرعاً فلا يشتغل بحرفة رذيلة ولا أمر منكر ولا خارج عن المرؤة ولا موهم لذلك [و] أن يأخذ نفسه بالمحافظة على الديانة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهد الاستطاعة مع الصبر على ما يتحمل من النصب والأذى في ذلك، [و] أن لا يستنكف عن أخذ العلم عن كل من لقي ولو دونه [و] أن يبث علمه للناس ويودعه صدور الرجال، فبذلك تنبت شجرة العلم وتتصل مادته، وذلك بالتدريس والتلقين والإفتاء والتصنيف.

وإن الإمام اليوسي رحمه الله يلزم بهذا النوع من الانضباط لدى المسلمين، فلأنه يريد بهم أن يكونوا في موقفهم الطبيعي الذي يخولهم مكانة يقتربون بها من الأنبياء، ويتفوقون على ذوي الأمر الحكام، كل هذا وغيره جعله محل أنظار وثقة الجميع، فلا تكاد تخلو تأليفه له في أصول الدين من ذكر تحريرات عقديّة عرفانية تأصيلية رصينة، وتنظيرات وتحقيقات بديعة، بعيدة كل البعد عن منهج التقليد والجمود.

وخلاصة القول في معالم فقه التدين في الدرس العقدي لدى الإمام اليوسي أنه وجد واقعه وجده يعج بالزيف والأهواء والبدع والضلالات فواجهه بالتوجيه والتصحيح والنقد. وعندما لا يحديه ذلك فتياً كان يلجأ تارة إلى الرفض العملي مما أفضى به إلى التشريد في آخر حياته، وأخرى إلى الرفض بالكلمة وكأنه يستهزئ بهؤلاء الذين يحيط بهم الفساد من كل جانب فلا يضايقهم ولا يتخذون منه موقفاً معيناً، ولا يريدون أن يعيشوا لقضية من القضايا في حياتهم: فهؤلاء الذين لا ينتمون إلى قضايا مجتمعهم، ولا يحفظون مدرّكاته الجماعية، ويتنكرون لحضارته وهويته، يرى فهم الإمام اليوسي رحمه الله، فقدانا

للحس كالمجانين، أو ضعفه كالأطفال، وهؤلاء يسلم باطنهم من كل صراع.. أما الذين ينتصرون لقضية معينة، فإنهم مقضي عليهم بعذاب الباطن؛ ولا ينسي اليوسي هؤلاء المنتمين إلى شئ غير صحيح، ولا يقوم على أساس، ويتوهمون فيه الملاءمة، ويكرهون الملائم ويتوهمون أنه منافر، بتدخل عوامل من العوامل: وهؤلاء هم المنتمون المزيفون "وكل مجتمع يعيش مرحلة تحول سياسي واجتماعي مثل عصر اليوسي، فانه سيعرف هذه النماذج الثلاثة: الذين يعملون من أجل مثلهم فيتعذبون، وهؤلاء الراضون بالسلامة، وهؤلاء المنخرطون في صراع منحرف عن طبيعة الأمور"¹⁶.

1-2/ معالم فقه التدين عند الإمام اليوسي من خلال اجتهاده الفقهي و تصوفه السني: لم يكن منهج اليوسي في

تصوفه السني واجتهاده الفقهي مجرد ترف فكري، بل هو منهج له أبعاد مقاصدية مضبوطة ترتقي إلى مستوى الاجتهاد والانتقاد والرد والقبول، فقد درس الفقه والتصوف دراسة متينة تلقيا وعطاء، وتأليفا وتديسا، وتأثراً وتأثيراً، كنموذج من أحسن وأكمل نماذج الفكر المغربي في عصره. وهذا يظهر جليا من خلال استقراء مؤلفاته عامة، وفتاويه ونوازل ورسائله الصوفية، وشروحاته ومنظومته الفقهية خاصة. ولما كان التقليد الأعلى للمذهب والجمود عليه، وعدم استعمال الرأي، هي خاصيات عرف بها عصر اليوسي ومعاصروه فان فكره أبى إلا نبذ ذلك. وليس معنى الرأي هنا إتباع الهوى، وإنما معناه الترجيح القائم على العلم، ومعناه أيضا ظهور شخصية الباحث في المسائل والقضايا التي يتناولها، ظهورا يرتفع به غمار المقلدين إلى علياء المجددين المجتهدين. فالاستقلال في الرأي سمة وأصالة، وقد يبدو هناك تعارض بين ما في معنى الاستقلال من انفصال وما في معنى الأصالة من ارتباط، لكن عند التحقيق يظهر أنهما متكاملان: فالاستقلال بدون أصالة شذوذ والأصالة بدون استقلال جمود. والشخصية الجامعة بين الأصالة والتجديد عزيزة الوجود، ولا تكون إلا زبدة جيل أو مخاض عصر بأكمله. ولقد كان اليوسي رحمه الله حريصا على التمسك بالسنة في تصوفه وسلوكه، ومن المجددين المجتهدين الذين تظهر أصالتهم واستقلالهم في الرأي في جل أبحاثهم وأثارهم.

وعلى الرغم من وضوح اليوسي وموقفه بما لا يدع مجالا للشك في تصوفه وتفقهه، فانه تعرض لبعض الطعن من لدن بعض الكتاب الذين لم يتصوروا إمكان توفيقه بين السنية والتصوف، في خلط عندهم بين التصوف السني التعبدي القائم على الاقتداء بالرسول عليه السلام والعمل بما يرضي الله تعالى ويقرب إليه بعلم ومعرفة، وبين طريقة الجهال المشعوذين. والسبب أن الخيط بينهما رفيع دقيق لا يدركه من لم يقف على حقيقة التصوف¹⁷. غير أن الإمام اليوسي لم يضيق بهذا الطعن ورد على متهمة، مدافعا عن نفسه بموضوعية، وأخلاق عالية مبينا المعنى الحقيقي للعقيدة والسلوك، متواضعا قابلا للمراجعة والمواخاة. ولا يفوته في مرة أن يذكر بأن ما جاء به هو ما حضره في الوقت "بلا كبير روية.. ولا مراجعة المظان، لخلو اليد في الوقت من الكتب، فمن طالع من السادات بعد، فأصاب علما آخر موافقا أو مخالفا فليضفه إلى ما سطر إفادة ونصحا، فان الدين النصيحة، المومن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"¹⁸.

ونظرا من جهة، لما للفقه والتصوف من أهمية قصوى في بناء العمران الحضاري الإنساني لحياة الأمة بشكل عام، وكل ما يتعلق بحياة المسلم الدنيوية والأخروية بشكل خاص، وإذا عرفنا من جهة أخرى أن أحكام الشريعة الأصلية، وخاصة القرآنية منها غير قابلة للتطور ولا للتطوير، وأن من مميزات الفقه الإسلامي مسيرته للظروف والأزمنة والإجابة على الإشكالات المستعصية والمستجدات المعاصرة التي تواجهها الأمة اليوم، أي قبوله للتغيير بحسب ما يظهر لديه¹⁹:

باب الاجتهاد التي فتحها الشارع للقادريين عليها من كل المسلمين في كل عصر، وفي كل مكان. هي الكفيلة بمسايرة الشريعة وسدها حاجة ما استجد من المسائل التي لا حصر لها ولا نهاية لوقوعها، والاجتهاد يرجع إلى استنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية، إما بفهم جديد لأية من كتاب الله تعالى، أو لحديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، أو انتباه لعله يرجع إليها مناط الحكم. وهذا النوع من الاجتهاد الفقهي هو خصيصة فقيه المغرب الكبير اليوسي.

فإذا "كان علم الفقه على مذهب الإمام مالك هو اختصاص المغاربة بالدرجة الأولى فان للإمام اليوسي في هذا الاختصاص مشيخة عالية مثل شيخه سيدي محمد بن ناصر الدرعي، وشيخه أبي العباس أحمد بن محمد التجمعتي، وشيخه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الهشتوكي وغيرهم، كما أن اليوسي من الذين تخرج عليهم جماعة من كبار فقهاء المغرب"²⁰.

وفي رسالة له رحمة الله عليه حول مسألة الأذكار عقب الصلاة تبرز شخصية الفقيه، والمجتهد المطلق، البعيد عن أشكال التعصب المذهبي والتقليد والجمود. وهو عندما يبسط القول في المسألة تجده متمكناً متخلقاً رواية ودراية بالموضوع يحلل ويقارن بين أراء المذاهب ويختار القول الأنسب والراجح مبدياً رأيه فيه. يقول رحمه الله²¹:

أما الأذكار المذكورة بعد الصلاة فلم يرد فيها رأينا ترتيب ولا اشتراط اتصال بالسلام، وإنما المقصود كونها بعد الصلاة...وأما التهليل فإنما ورد فيه: لا اله الا الله محمد رسول الله ولم يرد فيه سيدنا ولكن من أراد أن يزيده تعظيماً فلا بأس عليه إن شاء الله. ثم هذا التهليل لم يرد عقب شئ من الصلوات فيما رأينا فمن شاء أن يقوله في نفسه فليقله، وأما قوله بالاجتماع فعلى الخلاف الذي قلنا. وقاعدة الإمام مالك فيه الكراهة، وكذا في نظائره من كل ما لم يرد بعينه شرعاً. وقاعدة الشافعي الجواز...وليوقف بباب الله تعالى ويكثر الصلاة على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، فانه الوسيلة العظمى في الدنيا والآخرة والله المستعان.

أضف إلى ذلك أن أجوبته في الموضوع الفقهي الواحد تختلف حسب ظروف وملابسات كل حالة على حدة، وهو يعطي لذلك أهمية بالغة. فهي ليست فتاوى جافة متزمتة وإنما هي بحوث متمعة تحيط بالظروف السياسية والاجتماعية، يبيدي فيها آراءه ويجتهد، وينظر إلى الأمر من جميع وجوهه، كما أنه يحتفظ لفتاويه بميزة اليسر في الأحكام وخفة التكليف، وعدم العسر والحرج والأخذ بسياسة الشارع في الرفق الذي يجلب الإنسان إلى الطاعة بصفة تلقائية: حيث كان يحمل السائل المسؤولية نفسه لأنه أدري بدواخله ودوافعه وهذا في جميع فتاويه، هذا إلى جانب الترتيب والنظام والاستيعاب والتقليل من الإحالات على كتب الفقه وضرب بعضها ببعض كما هو عند غيره، لذلك نجده رحمه الله في تمثله المعنوي للقيم الفكرية يرى أن²²:

الشريعة لها ظاهر هو للفقهاء، وباطن وهو للصوفية، وإنما يكمل الأمر بهما معاً. ولهذا يقال: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه، فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، فمن أنكر هذا وجعله نجاسة أو جعل صاحبه داخلاً في حزب الشياطين فقد أنكر الشريعة.

ومع ذلك، فإن الفقيه اليوسي يتخذ موقفاً أخلاقياً وسطاً يجعله يفرق بين المدجلين المشعوذين وبين أولياء الله الصالحين، ويجعله بالتالي يتبرك بآثار هؤلاء بإيمان وحجية، وان في غير غلو. وحتى لا يقتدى به العوام فيزيدون على ذلك ويبالغون، فإنه يبين أن "التبرك بآثار الصالحين مع صحة العقيدة لا بأس به وله أصل في فعل الصحابة رضوان الله عليهم"²³. وهكذا استطاع الرجل أن يجمع ما تفرق عند غيره، وان يصل إلى مراده، مبتعداً بذلك عن مظاهر الغموض والإيهام والالتباس والجمود والتقليد، جامعاً بين الحقيقة والشريعة، داعياً إلى الجمع بين التفقه والتكلم والتصوف عالماً عاملاً. وفي رسالته إلى أهل بلد كارت خير شاهد ودليل ومما قال فيها²⁴:

عليكم بالتعلم والسؤال عما لا تعلمون. ولا تكتفوا بقولكم وقلدوا الفقهاء في الأحكام الشرعية من الديانات والحلال والحرام، والمتكلمين من أهل السنة في العقائد الدينية، ولا تقلدوا في الآداب وصلاح القلب إلا أرباب القلوب.

والشخصية الجامعة بين الأصالة والتجديد عزيزة الوجود، ولا تكون إلا زبدة جيل أو مخاض عصر بأكمله، ولقد كان اليوسي من المصلحين المجددين والمجتهدين الذين تظهر أصالته واستقلاليتهم في الرأي في جل أبحاثهم وأثارهم. حيث ينحو منحى خاصاً فيقبل من كلام القدماء ويرد، وربما أتى برأي ينافس به فحولهم ويخالفهم. ومعلوم أن الرأي المخالف إن كان من الدلائل الشرعية التفصيلية وكان صاحبه ممن توفرت فيه الشروط اللازمة فهو اجتهاد لا يغض من قدر الرجل حتى في حال الخطأ. فأحرى عند مجرد المخالفة، سواء تعلق الأمر بالاجتهاد المطلق والاجتهاد المذهب²⁵، أو الاجتهاد الفتوى بشروطه المعروفة. ففي جوابه للسلطان إسماعيل في مسألة الأمة التي واقعها وأراد أن يعرف الحكم إن أراد أن الانتقال إلى ابنتها لدليل جلي على مدى استقلال فكر اليوسي وشخصيته الفقهية وتحرره واستيعابه الذي يحيط بالمسألة وبجوانبها - بلا كبير روية ولا مراجعة المظان أحياناً لخلو اليد من الكتب-على خلاف جوابين عن نفس السؤال لعالمين جليلين من معاصريه، ليتضح الفرق بينه وبين غيره في الطريقة والمنهج: أجاب الفقيه القاضي أبو مروان عبد المالك التجمعتي بقوله:

إن إصابة المشار إليه في السؤال للأمة المأخوذة من أهلها على الوجه المنبه عليه، إصابة ملغاة في نشر الحرمة في أصولها وفصولها، فلا يترتب شئ من لوازم الوطاء الشرعي. فيحل وطء ابنتها مثلاً بالملك والنكاح، وعليه درج الإمام مالك في (الموطأ) وكفى به قدوة وحجة وما وقع في (المدونة) محمولاً عند بعض العلماء على الكراهة، وعليه فالخطب في المسألة سهل. والله أعلم.

وأجاب القاضي أبو عبد الله سيدي محمد بن الحسن المجاصي فقال:

الجواب أعلاه صحيح، وما نقل عن الإمام في الموطأ قال الحافظ: عليه جل أصحابه. بل قد قال غير واحد: انهم جميعهم عليه. قال سحنون: ولا اختلاف بينهم. وتشهير مقابلة لم يقف المحققون على بعد البحث عنه عليه. والاعتراض بكلام //تهذيب مدفوع بكلام عياض على الأصل. وبالجملية قول الإمام السابق هو المعول عليه ويؤيده من جهة النظر أن المعدوم شرعاً كالمعدوم حساً حسبما تقرر في القواعد".

ثم أجاب الفقيه اليوسي بقوله:

ينبغي أن ينظر إلى حال السائل عند مواقعه الأمة المذكورة، فانه لا يخلو ساعتئذ من ثلاث حالات: الأولى: أن يطأها معتقدا لحريتها مقتحماً لذلك بلا وجه ولا شبهة الزنا المحض الذي يترتب فيه الحد وينتفي الولد. الثانية: أن يطأها معتقدا للحلية متمسكاً بوجه شرعي عنده بأن يرى لنفسه صحة الملكية على الأمة المذكورة بسبب يعتريه، إما أن يكون المال المأخوذ مثلاً في الحقيقة خراجاً وان سماه اسماً آخر وكون ذلك من المصالح العامة المرسله التي ينضبط بها أمر الناس أو من العقوبات بالمال لأجل ذلك، ويدين بمذهب من يرى شيئاً من ذلك في المذهب أو خارجه، أو إنما المأخوذ غضباً أنما هو النقد والأمة أو نحو ذلك من التأويلات، ثم يرى أنها إذا حصلت بذلك الوجه وصارت في عدد المال كان له حق في المال فلتكن هي ذلك النصيب أو بعضها منه، ويكون في هذا كله قد نظر لنفسه في المسألة إن كانت له مشاركة أو قد أفتاه مفت يرضاه فقلده. الثالثة: أن يطأها معتقدا للحلية لا بوجه، ولكن جهلاً منه بتلك الصورة، وظناً منه أنها من جملة المباح له.

فأما في الحالة الأولى: فالمسألة هي مسألة الموطأ المشار إليها في الأجوبة فوفاً، لأنها إنما فرضت عند الإمام مالك وغيره في الزنا وهو ووطء من لا ملك له على الاتفاق بلا شبهة ولا غلط ولا جهل للحكم ولا للعين، كما لا تخفى حقيقته. وما أجاب به السادة وفوقه أصلحهم الله وأبقى وجودهم للإسلام، صحيح يعمل به ولا مزيد عليه.

وأما في الحالة الثانية: فالحرمة تنتشر بين الموطوءة وأصولها ولا سبيل للوطء إلى ابنتها، لأنه يرى انه وطن أمها بملك اليمين، وذلك ينشر الحرمة وكون تلك الشبهة لا يلتفت إليها في نفسها ولا تجوز الفتوى ولا العمل بمقتضاها في المذهب، لا يقدر في هذا لأن المطلوب فيه مجرد الوجه المخرج عن الزنا الموجب للحد، دليلاً كان أو شبهة، وقد حصل وهذا أرواح لا نزاع فيه، حيث يقع الوطء كمسألتنا، وإنما التفصيل في غيره.

وأما في الحالة الثالثة، فلم يقبل منه ادعاء الجهل اعتباراً بالغالب أو بأن ذلك من الحرام الواضح الذي لا يقبل فيه الجهل مطلقاً، فالحكم حكم الحالة الأولى ولا إشكال... والله المستعان

وحاصل جواب الفقيه اليوسي أن هناك أربع حالات تنتشر الحرمة بين الأمة وبين أقاربها في اثنتين منها ولا تنتشر في الآخرين، أما الحالتان اللتان تنتشر فيهما الحرمة فهما: أولاً، أن يطأ السائل الأمة معتقدا للحلية متمسكاً بوجه شرعي؛ ثانياً، أن يطأها معتقدا للحلية لا بوجه، ولكن جهلاً منه بتلك الصورة وظناً منه أنها من جملة المباح له، فإن قبل منه ادعاء الجهل اعتباراً فالحرمة تنشر لأن الوطء حينئذ شبهة.

أما الحالتان اللتان لا تنتشر فيهما الحرمة بين الأمة وأقاربها فهما: أولاً، إذا وطئها السائل معتقدا لحريتها وهو الزنا المحض؛ ثانياً، أن يطأها معتقدا للحلية لا بوجه ولكن جهلاً منه وظناً منها أنها من جملة المباح له، وفي هذه الحالة لا يقبل منه ادعاء الجهل اعتباراً بالغالب فالحكم أن الحرمة لا تنتشر أيضاً.

وهو ينبيه على الرجل الذي ظهر في سجد ماسة، وشاع عنه انه ولي وأنه صاحب الوقت، وخرج الناس لرؤيته، وكذلك أمير البلد، وتعذرت رؤيته فدخل قبة في المقابر فأخرج كفه من طاق في القبة فجعل الناس يقبلون الكف وينصرفون. ثم بعد أيام سمعنا أنه ذهب إلى ناحية الغرفة، وأنه سقط في بئر هنالك ومات. فظهر أنه رجل مصاب، وكان يشتغل باستخدام الجان ونحو ذلك فهلك²⁶. ومثله الرجل المدعى الصلاح بهسكورة، وهو يفعل الفاحشة وكذلك الرجل الذي كان يعد الناس بأن يبلغهم إلى مكة ويحج بهم في طرفه عين، ولكن بعض الأشراف اختبروه وطرده بعد أن قبل رفع الصلاة عن أحدهم مقابل مبلغ من المال، ثم تبين بعد ذلك أنه يهودي²⁷.

وهكذا تتضح جلياً شخصية اليوسي الصوفية الفقهية المتفردة وطريقته الاستنباطية من تفصيل وتفريع وما نتج عن ذلك من بيان شاق للأحكام، وتنزيل الأقوال في منازلها المعتمدة مما يزيل التعارض ويقرب شقة الخلاف ويساعد على التوفيق والجمع²⁸. وأن يجمع ما تفرق عند غيره، وأن يصل إلى مراده، جامعا بين الحقيقة والشرعية، وبين المنقول والمعقول داعياً إلى الجمع بين التفقه والتكلم والتصوف عالماً عاملاً، يقول رحمه الله: "عليكم بالتعلم والسؤال عما لا تعلمون، ولا تكتفوا

بعقولكم وقلدوا الفقهاء في الأحكام الشرعية من الديانات والحلال والحرام، والمتكلمين من أهل السنة في العقائد الدينية، ولا تقلدوا في الآداب وصلاح القلب إلا أرباب القلوب"²⁹.

[]

2/ فقه الإصلاح والتغيير في الفكر اليوسي بين التمثيل المعنوي والتمثيل الواقعي: يمتلك الإمام أبي الحسن اليوسي شخصية إصلاحية قوية، جمعت في منهج تغييرها بين التمثيل المعنوي والتمثيل الواقعي، للقيم الفكرية والسلوكية التي آمن بها في حياته وبقي وفيها لها حتى مات عليها، فذاع صيته وجمع الناس حوله: الشئ الذي رفع من قدره وجعله يحظى باهتمام واعتراف من لدن السلطان إسماعيل. فرغم المدة الطويلة التي قضها في الزاوية الدلائية، ورغم الأسباب الكثيرة التي كان من شأنها أن تدفعه إلى الخوض في غمار السياسة، بقي محجماً عن الخوض في الصراع الدائر حوله، محافظاً على مرونة كبيرة، مؤيداً للسلطان ومسالماً معه. إلا أنه في نفس الوقت لم يكن يخشى مواجهته ولا يخاف في ذلك إلا الله ولم يكن غافلاً عن الواجب الذي فرضه الله على كل عالم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدح بالحق والنصح لولي الأمر، ونذكر هنا بما نقل عن المولى إسماعيل في الاعتراف بمكانة الفقيه اليوسي العلمية والتقدير والاحترام الذي كان يوليه له والثناء عليه من بين أقرانه من أهل العلم، من أنه قال: علماء الوقت على أربعة أقسام: قسم لا يخاف إلا من الله ولا يخاف منا، وقسم يخاف من الله ومنا، وقسم يخاف منا ولا يخاف من الله، وقسم لا يخاف منا ولا من الله. ومثل للقسم الأول بالإمام اليوسي رحمه الله. ويبدو أن اليوسي كان يشعر بصعوبة ارتباط العالم الحق بالسلطة الحاكمة، وعدم جدوى هذا الارتباط حتى حين تتاح بينهما علاقة طيبة، وهي صعوبة ناتجة عن الظروف والملابسات التي أصبحت تحيط بهذه السلطة، حائلة دون قيام العالم برسائلته ونهوضه بمسؤوليته، بعد أن غيرت طبيعة الحكم عما كان عليه في عهد الخلفاء الراشدين الذين كانوا أحرص الناس على سماع النصح والنقد، لاستقامتهم واعتبارهم الحكم لله والقيام به عبادة³⁰.

وبما أن الفتوى ابتلاء وامتحان لاسيما إذا كان العالم في عصر ملوكه متعلقون بأحكام الشريعة متطلعون إلى رأي العلماء في كل صغيرة وكبيرة مثل عصر الفقيه اليوسي، فانه يبقى بعد هذا كله متواضعاً، قابلاً للمراجعة والمؤاخذه، ولا يفوته في مرة أن يذكر بأن ما جاء به هو ما حضره في الوقت "...بلا كبير روية..ولا مراجعة المظان، لخلو اليد في الوقت من الكتب، فمن طالع من السادات بعد، فأصاب علماً آخر موافقاً أو مخالفاً فليضفه إلى ما سطر إفادة ونصحا، فان الدين النصيحة، المومن للمؤمن كالبنين يشد بعضه بعضاً"³¹ ففي جوابه للسلطان إسماعيل في "نازلة العرائش" وهو يناقش احتمالات تأويل التأمين، والآي والاحايث الواردة في ذلك، مناقشة حية شيقة يضعها لبنة لبنة لبناء تحليله المحكم، ثم يرد بأخلاق العلماء الكبار على ممن أفتوا في النازلة ويفهم من صراحة اليوسي وصدعه بالحق أن نقض الأمان كان سببه الطمع في أموال النصارى: "ونسأل الله أن يختار لمولانا أي الجانبين أعظم، إما المال وإما شرف الذكر." ثم يدعو السلطان إسماعيل لإعلان الحقيقة لتبرئة الشريعة المحمدية، ويظهر اليوسي هنا ميالاً للاعتقاد أن الأمان أعطي فعلاً للنصارى، وأنه لا يجوز الرجوع فيه أبداً مهما كانت الظروف حفاظاً على الروح السمحة للشريعة المحمدية: "فلا يزالوا يرهبون، ويخضعون له ويشقون بعنده وموائيقه، وفي ذلك من الخيرات والمعالم ما لا يخفى"³².

وهكذا خلف الفقيه اليوسي رحمه الله، إرثاً نفيساً وتراثاً فقهيًا إصلاحياً من النوازل والفتاوى والأجوبة³³. وقد كان صلاحه للفتوى من الأسباب التي جعلت السلطان المولى إسماعيل يلومه على تفضيله سكنى البادية: جاء في جواب الإمام اليوسي على كتاب من السلطان: "وقول الكتاب: وهل يستفتونك وأنت في البادية؟ فأقول: أما أهل البادية فلا يطلبون غيري وأما أهل الحاضرة فعندهم من يكفهم ومن احتاج إلي فليأتني"³⁴ والمولى إسماعيل نفسه لم يكن مستغنياً عن فتاويه، بالرغم من تواجد علماء كبار من معاصريه بالساحة العلمية بفاس، بل إنه كان يلج عليه حتى إن اليوسي لم يخف ضيقه بهذا الإلحاح فقال في إحدى فتاويه مخاطباً السلطان: وقد أرهقتنا مولانا بالفتوى، ولم تكن من شأننا ولا كنا أهلًا لها في أدنى شئ فكيف في هذا الجنب الأعظم³⁵.

إن الإمام اليوسي رحمه الله لم يكن منعزلاً عن هموم مجتمعه وقضاياه بل كان متغلغلاً ومشاركاً له مصلاً ومصححاً وموجهاً لعوائده وتقاليده محافظاً بأسلوب حكيم وخلق كريم، على أصالته ومدركاته الجماعية وأصوله الحضارية التي نشأ وتربى عليها. ففي رسالته جواب الكتاب، وهو يعدد أسباب استئقاله لسكنى مدينة فاس، فإنه يذكر منها³⁶:

فساد طبع العيال والأولاد والأصحاب ونخشي ذلك نحن أيضاً في أنفسنا من جهات: إحداها تعلم الشهوات والاتساع فيها، وإن كنا في البادية لا نعرفها، ووجدنا آبائنا يعيشون بما وجدوا قانعين به، يلبسون الثوب الخشن ويأكلون البترارة والشعير أخرى والدخن أخرى والتمر أخرى والبلوط وحب العرعار أخرى، حامدين شاكرين، ما رأوا قط لباب البر ولا إزاراً ولا عطرًا ولا كتاناً ولا ملفاً.. ثانياً الوقاحة في ذلك وقلة الحياء، فقد كنا في البادية تستحي المرأة أن تطلب اللحم فكيف بما وراءه، ولكن تتشوف إلى المواسم أو ضيف نزل فيذبح له أو يشتري له أو إنفاق يأتي به الله من غير استدعاء، فوجدنا المرأة في الحاضرة تراعى الباب وتقول للرجل: انفق وارجع إلى السوق، ولا تسمع إلا سوق اللحم، سوق الحوت، سوق الزعفران، وهكذا. ثالثاً أن يتعلم الصبيان اللؤم والبخل وقلة السماحة كما هو دأب أهل الحاضرة وما فسدت طبائع العرب إلا في الحواضر.

ومن العادات القبيحة التي حاربها رحمه الله، عادة التطير من السواد كعدم زجر الكلب الأسود، والتشاؤم من الغربان، وعدم ارتداء الثوب الأسود، وعدم ركوب الفرس الأدهم مستشهداً بحديث سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام الذي قال فيه عليه السلام "لا عدوى ولا طيرة". وفي ذلك يقول اليوسي: "فالحق عندنا في تأويله أنه إثبات لانفراد المولى جل بكل التأثير وألاً تأثير لشيء مما يتوهم العرب أنه مؤثر لا في باب العدوى ولا في باب الطيرة لأنه نفي لما جرت العادة بوجوده"³⁷. وجواب الفقيه اليوسي ينم على طريقة تبسيطه للقضايا التي يلقيها للعامة وخاصة في مجال الفقه والعقيدة والسلوك، ومنهجه في التدرج مع مراعاة شعور الملحق له بإغرائه وعدم تنفيره حيث يرى أنه³⁸:

إن أَلَمْنَا هذا عزل النفس عن الحظوظ وتجريد القلب للحقيقة، أوشك أن تحيص نفسه حيصة وهي لم تزل قوية، فيعود من حيث جاء. ولعلك تفهم بهذا سر امتلاك كتاب الله تعالى بذكر الجنة وما فيها من الحور والقصور والغلمان والأهبار، فإن الدعاء بمثل هذا هو مشرب النفس، وهو حال عامة الخلق، والله تعالى أعلم بمصالح عبادته. ثم إنه إذا ارتفع المريد عن هذه الحالة واشرب إلى ما وصل إليه العارفون وانتهى لسلوك هذا المسلك والاشتغال بعمله من العزلة والصمت والجوع والسهر، فلو توهمنا فيه التشوف إلى حصول الوصول أو الولاية أو المعرفة أو الفتح أو القرب أو نحو ذلك، فلا ينبغي أيضاً أن نعالجه بالتحقيق ونطالبه بالعبودية والفناء عن الأغيار من أول وهلة، بل نرعى له العنان حتى يتمكن في الرياضة وتنقاد نفسه ويقشعر جلده وقلبه لذكر الله، فعند ذلك يسهل إشالته مع السابقة والتوفيق إما على لسان شيخ ناصح أو أخ صالح أو بعض من ينصره الله به.

ولعلنا بعد هذا لا نستغرب من تجاوب الجماهير معه وإقبالها عليه بشكل كان يزجج السلطان باستمرار. فقد: "كان حيثما قرأ يطبق الناس عليه ويغص مجلسه بالخلائق مع ميلان العامة إليه، فكان لأجل ذلك ينقله السلطان من موضع إلى آخر"³⁹. وكان إحساس اليوسي بوجوب محاربة الشوائب والخرافات يحثه على ربط هذا الوجوب بمسؤولية العالم في المجتمع، ويجعله يرى أنه "إذا ظهرت البدعة وسكت العالم فعليه لعنة الله"⁴⁰. فمثل هذه المواقف الواضحة وغيرها، كانت تفرض على اليوسي مسؤولية محاربة تلك البدع والضلالات، والتنوعية بها على صعيد العامة التي كانت يومئذ تعيش اضطراباً فكرياً وعقدياً نتيجة انتشار الشعوذة والتدجيل المختفين وراء ستار التصوف المزيف، وإن كان يرى أنه "ما زال التمسك بالسنة المحمدية بمغربنا والحمد لله، وظهور الحق والعدل وتغيير المنكر وإخفائه لمن ابتلي بشئ من ذلك بخلاف هذه البلاد"⁴¹. وفي عرضه لأحوال الجهال المضللين لا يكتفي بالتلميح وللإشارة، بل يطرحها بوضوح من خلال أنماط تدجيلية واقعية تعيش وسط المجتمع، مستغلة ببساطة بعض أفرادها⁴²:

فما شئت أن تلقي جاهلاً مسرفاً على نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة، فضلاً عن أن يخلص إلى الباطن، فضلاً عن أن يكون صاحب حال، فضلاً عن أن يكون صاحب مقام إلا وجدته يصول ويقول وينابذ المعقول والمنقول، وأكثر ذلك في أبناء الفقراء يريد الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه، ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة، بل لمجرد حطام الدنيا، فيقول: خدام أبي وزريبة أبي، ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان، ولا يقبل أن يحبوا أحداً في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به غيره. وإذا رأى من يخرج يطلب دينه أو من يدلّه على اله تعالى يغضب عليه ويتوعده بالهلاك في نفسه وماله، وقد يقع له عليه شئ من المصائب بحكم القضاء والابتلاء فيضيفه إلى نفسه، فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالاً، ثم يخترق لهم من الخرافات والأمور المعتادات ما يدعيه سيرة وديناً يستهديم به ثم يضمن لهم الجنة على مساوئ أعمالهم، والشفاعاة يوم الحشر، ويقبض على لحمه ذراعاً فيقول للجاهل مثله: أنت من هذه اللحمية. فيكتفي جهال العوام بذلك،

ويبقون في خدمته ولدا عن والد. قائلين : نحن خدام الدار الفلانية وفي زريبة فلان لا نخرج عنها وكذا وجدنا آباءنا. وهذا هو الضلال المبين، وهؤلاء قطاع العباد عن اله تعالى وعن دينه.

وإذا كان اليوسي يراعي شعور العوام ومستواهم العقدي والعملي، فيبدو متساهلاً بعض الشيء، فإنه حين يتعامل مع أقرانه من العلماء لا يبدي أي تحفظ أو تخوف، بل يجهر بالرأي بأخلاق راقية وإن خالفهم فيه، ويكفي أن نشير من ذلك إلى موقفه في قضية العلم النبوي وما كان له فيها مع عبد المالك التجموعي من مناظرة ومحاججة بالبرهان والدليل في قوة ومثانة رأي.

□

- خاتمة إن فقه التدين والإصلاح لدى الإمام اليوسي كان فقهاً خلافاً يجمع بين التمثل المعنوي للقيم الفكرية والتنزيل الواقعي للقيم السلوكية كما أشار هو لذلك في *الفهرست*⁴³ بحيث ينفذ إلى عمق المادة، يستخلص الباب ويغوص إلى الجوهر، مما جعله تحدياً لثقافة العصر التي تعتمد كلياً على الرواية والنقل بالدرجة الأولى. فالْيوسي لم تغلب عليه كما سبق الإشارة إلى ذلك- ثقافة الحفظ والاجترار والنقل، ولكنه رجل الرأي والتحليل والمقارنات والاستنتاجات، الرجل الذي تمكن من تجاوز المصادر والأمهات والوصول إلى المبادئ والكليات، وبهذا كان اليوسي يمثل تيار التجديد بالقياس إلى مدرسة فاس التقليدية⁴⁴.

والثابت أن علم اليوسي وذيوع صيته، قد أكسبه علاقات مستحكمة من الطلبة لا تنتهي بحلقات الدروس، بل تتجاوزها إلى الصحبة والاتصال المستمر مشافهة وكتابة مما مكن لمؤلفاته وأفكاره الذبوع والانتشار خصوصاً ما جاء في رسائله في الشؤون العامة، وفي التصوف والفقه والعقيدة: فأخبره مع السلطان إسماعيل يعرفها الجميع في عصره، ورسائله إليه يتناقلها الطلبة والمثقفون. وقد واجه رحمه الله واقعه بالتوجيه والإصلاح والتصحيح والنقد، وكأنه يُعَيَّف هؤلاء الذين يحيط بهم الفساد الأخلاقي من كل جانب فلا يضايقهم ولا يتخذون منه موقفاً معيناً، ولا يريدون أن يعيشوا لقضية من القضايا في حياتهم. فهؤلاء الذين لا ينتمون إلى قضايا مجتمعهم يرى فيهم اليوسي فقداناً للحس كالمجانين، أو ضعفه كالأطفال⁴⁵:

وهؤلاء يسلم باطنهم من كل صراع. أما الذين ينتصرون لقضية معينة، فإنهم مقضي عليهم بعذاب الباطن، ولا ينس اليوسي رحمه الله هؤلاء المنتمين إلى شيء غير صحيح، ولا يقوم على أساس، ويتوهمون فيه الملائمة، ويكرهون الملائم ويتوهمون أنه منافر، بتدخل عامل من العوامل وهؤلاء هم المنتمون المزيفون.

وكل مجتمع يعيش مرحلة تحول سياسي واجتماعي مثل عصر الفقيه اليوسي، فإنه سيعرف هذه النماذج الثلاثة: الذين يعملون من أجل مثلهم وأخلاقهم وقيمهم فيتعذبون، وهؤلاء الراضون بالسلامة، وهؤلاء المنخرطون في صراع منحرف عن طبيعة الأمور. وهذه الحقيقة، كما يلحظ الأستاذ عباس الجيراري، هي التي جعلته⁴⁶:

يتأثر بعصره ويؤثر فيه كذلك، من حيث أنه يكشف عن بعض المخبات فيه، ويؤثر على جملة من تناقضاته، ويرهص بصيغ جديدة لإعادة تشكيل البنية الأخلاقية، وبعض البنيات المهترئة فيه، وهو لا يفكر رحمه الله في هذا التكوين الجديد نسجاً على منوال أو نموذج خياليين، ولكن تحفزاً من الواقع ومعاناته فيه.

لقد أتيح للفقيه اليوسي رحمه الله، ليس فقط أن يتبع معالم مدرجات عصره الجماعية الموزعة، بل أن يلتقطها ويهضمها ويصهرها، في محاولة توحيدية تصحيحية تجديدية إصلاحية متفردة لم يكن أحد من معاصريه قادراً عليها، إن لم نقل قادراً على تصورهما والتفكير فيها، فضلاً عن تجميع ما تقتضيه من عناصر متكاملة، وهذه خصيصة تكفي لجعل فكر الرجل وشخصه يتسمان ببعد أخلاقي تجديدي ريادي خاص، هو في النهاية أحد الملامح البارزة في حياته. وختاماً لهذه الورقة البحثية أن تُسهم في الانطلاق الفعلي لدراسة وتحقيق تراث الإمام اليوسي والجانب الفقهي منه خاصة؛ وكذلك في إبراز المشروع الإصلاحي التغييري الكبير للإمام اليوسي - عبر دراسات علمية أكاديمية- تبيّن المنهج الأخلاقي المتكامل له في تجديد الفكر الديني بالمغرب الحديث. ناهيك بإبراز التراث الفكري للعلامة اليوسي وآراءه الإصلاحية واجتهاداته الدينية التي ضمنها في مؤلفاته وشروحاته ورسائله وفتاويه ونوازل الفقهية المعروفة، وإزالة غبار النسيان والإهمال عنها قبل أن يصيبها التلف، ودراسة منهجه من خلالها سبراً لمعالمه ووقوفاً على حقائقه، وإستكناةً لجوهره وبعده الأخلاقي وأصاليته وخصوصياته، وذلك

للإستفادة من تراثه في تسديد مسار الأمة وتجديد دينها وتدينها، وإغناء صرحها التشريعي والقضائي والدفع بالورش الإصلاحية التغييرية الحقيقي في المغرب وسائر ديار العربية والإسلام.

وإذ يلاحظ غياب دراسة استقرائية تستخرج منظومة اليوسي الفكرية الدينية، ومنهجه في الإصلاح وتجديد الفكر الديني بالمغرب، فالحاجة ملحة للقيام بها لتتكامل الأبحاث و الدراسات والندوات والملتقيات والمحاضرات والمقالات التي تناولت شخصية العلامة اليوسي رحمه الله تناولاً تجزئياً وفي مجالات محصورة ومخصوصة من فكره، وذلك لإبراز مختلف جوانب شخصيته الإصلاحية الأخلاقية لم تلق الدرس اللازم من لدن الباحثين؛ ومن ثم إظهار القواعد العلمية والضوابط المنهجية العامة، التي جاءت ماثلة بين ثنايا كتبه، والأساليب التي يتبعها في تأييد وجهة نظره فيها، وطريقته في البسط والبرهنة، والرد والقبول، والجمع بين المنقول والمعقول، وذلك باعتبارها طريقة تراعي آداب وأخلاق الخطاب ومستوى المخاطب وتتبع الحق وتحمل أعباء إتباعه.

إن الباحث الحق والدارس الذي يقف على التراث الفكري الذي تركه الإمام اليوسي رحمه الله من تأليف وشروح ومصنفات ونوازل واجتهادات يجد نفسه أمام مصلح مجدد وعالم فذ ذو منهج رصين له آراء وترجيحات بديعة، استطاع إلى حد بعيد إحياء القلوب، وتحريك العقول باختراق الحواجز النفسية التاريخية لعقلية التقليد والجمود، وتقديم نموذج أخلاقي إصلاحي تجديدي اجتهادي متميز، سواء في جانب المنهج التأصيلي أو الإنتاج الفكري والحضاري لهذا المنهج. فتتشوق نفسه للغوص في هذه المدرسة الإصلاحية التجديدية المغربية الأصيلة واستكناه معالمها.

إن الإمام اليوسي رحمه الله المصلح المجدد، الفقيه الأديب الأصولي المحرر المحقق الشهير، هو نموذج للمفكر المغربي المصلح الذي ارتبطت حياته بمدرسته وأفكاره الإصلاحية التغييرية، ولم يعرف ما يعاينه الفكر الإسلامي اليوم من انقسام كثير ما يجعل حياة المفكر وما يؤمن به من أفكار على طرفي نقيض.. وقد استطاع اليوسي بهذا أن يحرك مدرجات الفكر المغربي ويصلحها بطاقته المتجددة، ويجعله يساير من خلالها المتغيرات والقضايا المستجدة، مراجعاً المظان، ومستحضراً الفنون المختلفة من معقول ومنقول. فاستحق ثناء اليفراني ووصفه إياه بأنه "الشيخ الإمام علم الإعلام شيخ الإسلام آخر علماء المغرب على الإطلاق، ومن وقع على علمه وصلاحه الإجماع والاتفاق"⁴⁷.

[[[

¹ طالب باحث في سلك الدكتوراة، تكوين التربية والثقافة والفن، كلية علوم التربية، جامعة محمد الخامس بالرباط.

² سورة الرحمن (55)، آيات 2 - 4.

³ - الحسن اليوسي: رسائل أبي علي اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط1، 1981م) 1/ص101.

⁴ - عبد الحى الكتاني: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشايخ، تحقيق إحسان عباس (ب.م دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982م) 2/ص464.

⁵ - محمد ليفراني: صفوة من انتشار من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي (الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي، ب.ط، 2004م) ص208.

⁶ - الحسن اليوسي: المحاضرات في اللغة والأدب، تحقيق محمد حجي (ب.م: منشورات دار المغرب، ب.ط، 1976م) ص30.

⁷ - الحسن اليوسي: فهرسة اليوسي، تحقيق زكريا الخثري (بيروت: دار الكتب العلمية، ب.ط، 2009م) صص 129 - 138.

⁸ - المرجع نفسه، ص 43.

⁹ - الحسن اليوسي: رسائل أبي علي اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط1، 1981م) 2/ص406.

¹⁰ - محمد القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، طبعة حجرية، 2/ص142.

¹¹ - الحسن اليوسي: رسائل أبي علي اليوسي، م.س، 2/ص342.

¹² - للتوسع في ذلك، ينظر الرسالة الثامنة والعشرون في إبطال مسألة التسلسل، ضمن رسائل الحسن اليوسي، 2/ من 496 إلى ص481.

¹³ - الحسن اليوسي: المحاضرات في اللغة والأدب، م.س، ص36.

- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص 418.
- ¹⁵ - الحسن اليوسي: *القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم*، تحقيق حميد حماني (الرباط: مطبعة شالة، ط 1، 1998م) صص 5-6.
- ¹⁶ - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ ص 122.
- ¹⁷ - المرجع نفسه، ص 75.
- ¹⁸ - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 2/ ص 537.
- ¹⁹ - علال الفاسي: *دفاع عن الشريعة* (القاهرة: دار الكتاب المصري، ط 1، 2011م) ص 128.
- ²⁰ - عبد الكبير المدغري: *الفقيه أبو علي اليوسي نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية* (المحمدية: مطبعة فضالة، ط 1، 1989) ص 184.
- ²¹ - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 2/ ص 573.
- ²² - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ ص 83.
- ²³ - الحسن اليوسي: *المحاضرات في اللغة والأدب*، تحقيق محمد حجي، م.س، ص 37.
- ²⁴ - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 2/ ص 406.
- ²⁵ - عبد الكبير المدغري: م.س.
- ²⁶ - المرجع نفسه، ص 38-39.
- ²⁷ - المرجع نفسه، ص 11.
- ²⁸ - المرجع نفسه، ص 184.
- ²⁹ - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 2/ ص 406.
- ³⁰ - عباس الجراري: *عبقريّة اليوسي* (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط 1، 1981م/1401هـ) ص 89.
- ³¹ - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ ص 211.
- ³² - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ ص 257-270.
- ³³ - من أشهر فتاويه: فتواه في العكاكرة/ فتواه في نصارى العرائش/ فتاوى في وصل الشعر، بالإضافة إلى أجوبة وفتاوى أخرى متفرقة في آثاره.
- ³⁴ - الرسالة مخطوطة ن الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم: 849.
- ³⁵ - عبد الرحمن زيدان: *المنزعة اللطيف في مفاخرم إسماعيل ابن الشريف*، تحقيق عبد الهادي التازي (الدار البيضاء: مطبعة إديال، ، ط 1، 1993م) ص 89.
- ³⁶ - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ ص 130.
- ³⁷ - الحسن اليوسي: *المحاضرات في اللغة والأدب*، تحقيق محمد حجي، م.س، ص 82.
- ³⁸ - المرجع نفسه.
- ³⁹ - عباس الجراري، م.س، ص 70.
- ⁴⁰ - ن.م.س، ص 75.
- ⁴¹ - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 2/ ص 408.
- ⁴² - الحسن اليوسي: *المحاضرات في اللغة والأدب*، تحقيق محمد حجي، م.س، صص 107-108.
- ⁴³ - أحمد الهشتوكي: *هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام*، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط، رقم 190ق، ص 79.
- ⁴⁴ - الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ ص 118.
- ⁴⁵ - الحسن اليوسي: *المحاضرات في اللغة والأدب*، تحقيق محمد حجي، م.س، ص 121.
- ⁴⁶ - عباس الجراري، م.س، ص 100.
- ⁴⁷ - محمد الصغير اليفرنى: *نزعة الحادي في أخبار الحادي عشر*، تصحيح هوداس، منشورات بردي الرباط، ص 278.